المبحث الرابع:
من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أولاً: هديهم عليهم السلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد:

إن أعلم الناس بالله عز وجل هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام وهذا العلم به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثرَّ هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق والتوحيد الكامل لله عز وجل ، لأنه كلما كان العبد أعلم وأعرف بربه سبحانه كان أشد خوفاً وتعظيمًا وعبادة ومحبة وإخلاصاً، وإن مما اختص الله سبحانه به رسله ومن عليهم به هو تكميل هذا العلم النفيس في نفوسهم والذي هو أشرف العلوم وأزكاها، ومن الأدلة على شرف هذا العلم وأن أولى الناس به هم الأنبياء والرسل[1] ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 43].

- وقوله تعالى عن يعقوب عليه الصلاة والسلام: . . . ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68].

- وقوله تعالى عن قول يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه: . . . ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذلك بعد أن جاء البشير بقميص يوسف عليه السلام فارتد البصر إلى يعقوب عليه السلام وأخبرهم أنه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 53).

يدفع عنه اليأس ويثمر الرجاء وهذا الأثر العظيم من آثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عز وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام.

- وقوله تعالى: عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62]، أي وأعلم من الله ما لا تعلمونه، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم، وأعلم أن العاقبة للمتقين وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين[1].

- وقوله تعالى عن مقالة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: 28].

- وقال تعالى عن صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: 63].

- وقوله تعالى عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

- وقوله لنبيه محمد ﷺ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 54).

﴿ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

وقوله ﷺ عن نفسه عندما تنزه بعض الصحابة عن شيء رخص فيه الرسول ﷺ، فبلغ ذلك إليه فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»(1).

والعلم بالله عز وجل وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا له آثار إيمانية مباركة منها:

1 - شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه:

مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه والأمثلة في ذلك كثيرة منها:

أ - مناجاة نوح عليه الصلاة والسلام لربه بشأن ابنه:

- قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: 45 - 47].

ويظهر من هذه الآيات علم نوح عليه الصلاة والسلام بربه عز وجل والذي أثمر عنده هذا الأدب العظيم مع ربه والخوف منه

(1) البخاري رقم 6101 في الأدب، مسلم رقم 2356 في الفضائل.

سبحانه فتراه وهو يدعو ربه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختم دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عليه الصلاة والسلام بأسماء الله ﷻ وصفاته وآثارها، لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين، ولم يكن مع الناجين ولذلك ختم نوح عليه الصلاة والسلام دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه الصلاة والسلام من ربه واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، الله أكبر هذا نوح عليه الصلاة والسلام الذي أمضى تسع مئة وخمسين عاماً في دعوة قومه وصبر وصابر وناله من الأذى والاستهزاء الشيء العظيم ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربه سبحانه: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28][1].

ب - محاجة شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه ورده عليهم عندما خيروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم:

قال الله ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 57).

شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: 88 - 89].

وفي: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89].

أي: يمتنع عن مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها، مبغضون لما هم عليه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها، ومنها: أن عودتهم فيها ـ من بعد ما هداهم الله من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده، الذي لا تبتغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له، وأن آلهة المشركين، أبطل الباطل وأمحل المحال، وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون الحق والباطل والهدى والضلال، وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله، وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لحكمه وحكمته قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فيعلم ما يصلح

للعباد وما يدبرهم عليه[1].

ونلاحظ في الآيات الكريمة: أن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه وبقدر ما يرفع صوته في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه بقدر ما يخفض هامته ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل الذي وسع كل شيء علماً، فهو في مواجهة ربه، لا يتألى عليه ولا يجزم شيء أمام قدره، ويدع له قيادة زمامه ويعلن خضوعه واستسلامه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ﴾، إنه يفوض الأمر لله ربه في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه، إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت من العودة في ملتهم، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته ولكنه لا يجزم شيئًا عن مشيئة الله به وبهم، فالأمر موكول إلى هذه المشيئة وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون وربهم وسع كل شيء علماً، فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنه أدب ولي الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به أمره، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه، وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق[2].

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 60)، تفسير السعدي عند الآية 89 من سورة الأعراف.

(2) في ظلال القرآن عند الآية «89» من سورة الأعراف.

ج - تعظيم موسى عليه السلام لربه وخوفه منه:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾، إذا تجلى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ الأصم الغليظ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، أي: انهال مثل الرمل انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ حيث رأى ما رأى «صَعِقًا»، أي: مغشياً عليه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ تبين له حينئذ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه، لما صدر منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً لذلك: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهاً لك وتعظيماً عما لا يليق بجلالك، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك[1].

د - تعظيم عيسى عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه وأدبه مع ربه عز وجل:

وذلك عن سؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم ....

(1) تفسير السعدي عند الآية 143 من سورة الأعراف.

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: 116 - 120].

وفي هذه الآيات الكريمة من المعاني الشريفة اللطيفة ما يحتاج إلى تأمل وتدبر، ففي رد عيسى عليه الصلاة والسلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربه ﷻ ما يدل على معرفته لخالقه الكريم: وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟ قال المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116] ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد

وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المتفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لم تعذبهم، لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسان عبيده؟ لولا فرط عتوهم وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم العذاب، ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ولم يقل: «الغفور الرحيم»، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هم مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته، إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام

منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب[1].

هـ - تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه سبحانه وخوفه منه:

- فقد قال رسول الله ﷺ: «**فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»[2].

- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[3].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**». قالت: وإذا تخيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم عاد**»: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: 24][4].

---

(1) مدارج السالكين لابن القيم (2/ 378، 379).

(2) البخاري رقم 6101، مسلم رقم 2356.

(3) البخاري في الرقاق رقم 6486.

(4) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 67).

2 - كثرة ذكرهم الله عز وجل وشدة تضرعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم:

ومن هذه النماذج ما يلي:

أ - تضرعهم إلى الله وسؤاله قضاء حوائجهم:

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 83 - 90].

فقد: جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر، والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، أي: أنه في صبر

(1) بدائع التفسير لابن القيم (3/ 189).

أيوب عليه الصلاة والسلام ودعائه عبرة للعابدين من بعده ليقتدوا بصبره وعبادته ودعائه، وفي هذه الآيات أيضاً ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وأنهم من الصابرين وأن الله ﷻ جازاهم بأن أدخلهم في الصالحين[1].

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح وهو يشمل صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكَفِّها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله في رحمته وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين وأثابهم الثواب العاجل والآجل ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوَّه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً[2].

وفي قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، قال ابن القيم: فإن فيها من كمال التوحيد، التنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثل عنه والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ويوجب انكساره

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 70).
(2) تفسير السعدي (3/ 295).

ورجوعه إلى الله وإقالة عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه، فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها:

التوحيد، والتنزيه، والعبودية والاعتراف[1].

وقد وصف الله سبحانه: نبيه يونس عليه الصلاة والسلام بأنه كان من المسبحين في وقت الرخاء، فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 143 - 144].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾، أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وهو في بطن الحوت[2].

وهذا هو أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عز وجل وتسبيحه في الرخاء والشدة، وفي كل حين مع دعائهم لربهم واعترافهم بظلمهم لأنفسهم.

ويبقى في الآيات السابقة وصف زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾، أي: يسألوننا الأمور

(1) بدائع التفسير لابن القيم (3/ 190).
(2) تفسير السعدي (4/ 272).

المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون لا غافلون راهبون.

و﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متذللين، متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم[1].

هذه صلة الأنبياء بربهم: ذكر، وتسبيح ودعاء[2].

ب - خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله ﷻ:

فبعد أن ذكر الله ﷻ مجموعة من الأنبياء في سورة مريم أثنى عليهم لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58].

فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله، واختارهم واجتباهم، وكان لهم عند تلاوة آيات الرحمٰن عليهم المتضمنة للأخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب والأخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: ﴿يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، وفي إضافة الآيات إلى اسمه «الرحمٰن» دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم

---

(1) تفسير السعدي (3/ 297) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 73).

(2) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 73).

بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة وعلمهم من الجهالة[1].

ج - دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربهم بالثبات على الحق والموت على التوحيد والإسلام:

من ذلك قول الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

- وقوله تعالى عن دعائه الآخر أيضاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: 83].

- وقوله تعالى عنه أيضاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [الممتحنة: 5].

- وقوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام عند ما أخذت قومه الرجفة قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 155-156].

وقوله تعالى: عن سليمان عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19].

وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ

(1) تفسير السعدي (3/ 209).

وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

ومن دعاء يوسف عليه السلام: ينبغي للعبد أن يتضرع إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يتمها عليه ويحسن له العاقبة وليس هذا من «يوسف» تمنيًا للموت - كما ظن بعضهم - بل هو دعاء الله أن يحسن خاتمته ويتوفاه على الإسلام. كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت[1].

وقد أجمعت هذه الدعوة الإقرار إليه والبراءة من موالاة غير الله سبحانه وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء[2].

د - القوة في طاعة الله وعبادته:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: 45].

ومعنى ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قال: أولو القوة في العبادة والعلم بأمر الله وروي عن قتادة قال: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين[3].

والشواهد في ذكر عبادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة منها:

---

(1) تفسير السعدي (2/ 452) وقفات تربوية (3/ 75).
(2) بدائع التفسير (2/ 476).
(3) مجموع الفتاوى (19/ 170) وقفات تربوية (3/ 77).

- قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: 40].

- وقوله تعالى بين مدح إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 55].

- وقوله تعالى في مدح إسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 73].

- وقوله تعالى في وصف عبادة داود عليه الصلاة والسلام وإنابته وكثرة تسبيحه وخشوعه فيه حتى أن الجبال والطير تردد معه، قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: 17-19].

ووصف توبته بقوله سبحانه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24].

وقد وصف لنا الرسول ﷺ جانباً من كثرة عبادة داود عليه الصلاة السلام وقوته فيها فقال: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى**»[1].

(1) البخاري في التهجد رقم 1131، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 78).

وأما عن نبينا محمد ﷺ وكثرة عبادته وقوته فيها فهي كثيرة جداً ولا غرابة في ذلك فهو الذي امتلأ قلبه معرفة بربه سبحانه وحباً وتعظيماً له، وهو الذي قال له ربه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: 1 - 4].

وهو الذي قال له ربه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: 26].

وقال له: ﴿. . . فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، ومن أحواله ﷺ في عبادته وقوته فيها:

- عن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضى فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مسترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، - زاد في رواية ربنا لك الحمد - ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه[1].

- وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت

(1) مسلم، رقم 772.

قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

3 - كمال التوكل على الله والاستعانة به وحده ورضاهم بحكمه:

وإليك شيء من الأمثلة:

- قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71].

- وقال تعالى عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام في محاجته لقومه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 54-56].

ولمّا علم نبي الله هود عليه الصلاة والسلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته، وبلائه وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به،

(1) البخاري رقم 4836 في التفسير، ومسلم رقم 2819 في صفات المنافقين.

- بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء - أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادى على رؤوس الملأ في قومه بجنان ثابت وقلب خائف بل متجرد لله:

﴿... إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 54-56].

فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم[1].

- ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله ﷻ ما قصه الله ﷻ علينا في كتابه عن موسى عليه الصلاة والسلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٖ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: 61 - 63].

- قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: 40].

---

(1) بدائع التفسير (2/ 431، 432) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 82).

ب - حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

- وهذه الصفات من ثمار التوكل الصادق الذي ينبع من العلم بالله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته وآثارها.

- قوله تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: 101 - 106].

حقاً إن لهذا لهو البلاء المبين والامتحان العظيم للثقة بالله عز وجل والرضى بحكمه والاستسلام لأمره، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: أسلم الوالد والولد لأمر الله عز وجل وحكمه. الله أكبر، ما أعظم هذه النفوس وأنبلها وأطهرها وأعظم إيمانها وتوحيدها[1].

5 - ونموذج آخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: 68 - 70].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 85).

﴿ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل لـه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173] (1).

- ما قصه الله ﷻ في سورة يوسف عن يعقوب عليه الصلاة والسلام وحسن ظنه بالله ﷻ والرضا بحكمه النابع من صدقه وتوكله وثقته بربه سبحانه، قال تعالى في وصف رجائه وحسن ظنه بربه سبحانه بعد ما فقد ابنه الثاني وقبله كان قد فقد يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 83 - 87].

وإن هذا الرجاء العظيم من يعقوب عليه الصلاة والسلام في ربه ﷻ وحسن ظنه به واستسلامه لحكمه ليظهر من قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وقد توسل عليه الصلاة والسلام إلى ربه باسمه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وذلك لعلم يعقوب عليه الصلاة والسلام بربه وعلمه بأسمائه وصفاته ودلالاتها

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 88) البخاري رقم 4563.

وآثارها فكأنه يقول: إنه هو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وكذلك يتضح هذا الرجاء في الله عز وجل وعدم اليأس من رحمته من قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87] (1).

ج - الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه، فترى حياتهم كلها قائمة على الاستعانة بالله وحده والاعتصام به سبحانه، وأنهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدهم الله به من توفيقه وعزته عز وجل وهذه الصفة بارزة في هديهم جميعاً نكتفي منها بما يلي:

- قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذّبه قومه وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: 10].

- قوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الممتحنة: 4 - 5].

- وقوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام في وصيته

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 90).

لقومه بعد أن هدّدهم فرعون بقتل أولادهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

- وقوله تعالى أيضاً عن وصية أخرى من موسى لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84].

- وقوله تعالى عن موسى عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

- وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام عندما تعرض لفتنة النساء: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 33 - 34][1].

ثانياً: من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق:

لقد خصّ الله عز وجل أنبياءه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك فجاءوا قدوات لمن بعدهم يهتدى بأخلاقهم ويقتدى بسلوكهم، كما كان الشأن في توحيدهم وإيمانهم ومعرفتهم بربهم ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية وصفات نبيلة، فما هي إلا من آثار التصور الصحيح والإيمان العظيم،

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 96).

فالارتباط بين المعتقد والسلوك ارتباط قوي وبينهما تناسب طردي تشهد له الأدلة والتجارب، فكلما صح الاعتقاد وكان سليماً فإن الأخلاق تعلو وتنمو وتشرق والعكس بالعكس.

وحسبنا أن نستعرض بعض هذه الأخلاق الرفيعة، لتدلنا على بقيتها، لعل القلوب ترق والعزائم تستيقظ، لتلحق بهذه الصفوة المباركة فتهتدي بأخلاقهم وتسلك سلوكهم، وخاصة في مثل زماننا المعاصر والذي يشهد أزمة أخلاق وسوء ممارسات وتعامل بين الناس، فإن كنا محبين للأنبياء حقيقة فهذه من أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1]، ومن هذه الأخلاق ما يلي:

1 - خلق الرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل:

قوله تعالى عن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59].

فنوح عليه الصلاة والسلام خوفهم إن لم يطيعوه - عذاب الله - فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 97).

المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم[1].

وهذا التخوف على الناس من عذاب الله ﷻ كان عند جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك قول الله تعالى ﷻ عن شعيب عليه الصلاة والسلام يحذر قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89].

وقد وصف الله ﷻ نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

2 - النصح للناس:

- قوله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 61 - 62].

- وقوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: 67 - 68].

- وقوله تعالى عن نبيه صالح عليه السلام بعد هلاك قومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79].

---

(1) تفسير السعدي (2/ 122)، وقفات تربوية (3/ 99).

- وقوله تعالى عن نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

ولقد بلغ النصح الشفقة على الناس من نبينا محمد ﷺ حتى كاد هذا الأمر أن يهلكه، فخاطبه الله عز وجل قائلاً: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم نصحاً لهم وشفقة عليهم[1].

ومن هذا الباب، أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه والتي كانت كلها نصح وشفقة ورحمة مع أدب جم وحلم وتلطف من الابن النبي إلى أبيه الكافر:

- قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 41 - 47].

ومع أن الأب الشقي رد نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 100).

وهدده وتوعده بالرجم وطالبه بالهجر والمقاطعة إلا أن الابن البار الخائف على أبيه من عذاب يمسه الرحمٰن قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، فلما أيس من إيمانه تبرأ منه واعتزله وترك الاستغفار له ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاول الشفاعة فيه يوم القيامة ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين[1].

- ومن ذلك قوله تعالى عن إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 55].

أي وكان مقيماً لأمر الله على أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم[2].

3 - **الصبر:**

من الأخلاق الأساسية في الإمامة في الدين:

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

- وقال تعالى عن بعض أنبيائه قولهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 100).

(2) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 107).

ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12].

- وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].

- وقال تعالى عن أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44].

وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام بعد تلك الابتلاءات المتنوعة والتي ثَبَّتهُ الله عز وجل فيها وتجاوزها بنجاح أنه قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم وخشيتهم من الله سبحانه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، ومما تجدر الإشارة إليه، أن من أهم أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم هو أخذ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك وإرجاع الناس إلى عبادة الله عز وجل، وذلك حتى يقتدي بصبرهم من جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين فيثبتوا ولا يضعفوا ويستبشروا ولا ييأسوا، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

- وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تعرض لمحن عظيمة فصبر لها صبر الموحد لربه الموفي لوعده، ذلك حين ألقي في

النار، وحين أمر بذبح ابنه وفلذة كبده، وحين أمر بتركه بواد غير ذي زرع، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

- وهذا موسى عليه الصلاة والسلام وما واجه من الأذى والتهديد من فرعون وملئه، ثم ما واجه من الأذى والتعنت من قومه بني إسرائيل حتى أن الرسول ﷺ قال عن موسى عليه الصلاة والسلام: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[1].

- وهذا عيسى عليه الصلاة والسلام جاءه من الأذى والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتى تآمروا على قتله وصلبه، فصبر على ذلك كله، ولكن الله عز وجل رفعه إليه[2].

والأنبياء والمرسلون يتفاوتون في الصبر، فبالرغم من الصبر العظيم من يوسف عليه الصلاة السلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوى فقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعله الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم وبما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ

(1) وقفات تربوية (3/ 108)، البخاري رقم 6100.
(2) المصدر نفسه.

وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾ [الشورى: 13]، وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة[1].

وفي قصة يوسف عليه الصلاة والسلام من جوانب الصبر العظيمة ما يدلنا على ما هو أعظم صبراً من يوسف عليه الصلاة والسلام، ففي قول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: 33].

عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان به والطاعة، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لقومه» .... ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 2110).

لما قال فرعون.... ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 127 - 128].

وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: 41 - 42].

... فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور، كما فعل يوسف عليه الصلاة والسلام: اتقى الله بالعفة على الفاحشة وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان بالله ودعاه، حتى يثبته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن وصبر على الحبس. ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله، كما فعل يوسف عليه الصلاة والسلام وغيره من الصالحين، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعيم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً، فيوسف خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته بالمال والرياسة، وزوجُها مِن طاعتِها، فاختار يوسف الذل والحبس وترك الشهوة والخروج على المال والرياسة مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية، بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن أذاه بالحبس والكذب،

فإنها كذبت عليه، فزعمت أنه راودها ثم حبسته[1].

كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختياراً ورضى، ومحاربة للنفس، ولاسيما مع الأسباب التي تقوي معها دواعي الموافقة، فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية، وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس له وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب وجمال وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صَبر اختياراً، وإيثاراً لِمَا عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه[2].

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم من الله، باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم ـ أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً في فعله، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح وصبر أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام على تنفيذ أمر الله أكمل

(1) مجموع الفتاوي (15/ 130 – 135) باختصار.

(2) مدارج السالكين (2/ 156) لابن القيم.

من صبر يعقوب على فقد يوسف[1].

هذا هو صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهذه هي تضحياتهم وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم وأن ننتفع به كما انتفعوا فلا بد في هذا الصبر من شروط ثلاث:

- أن يكون الصبر بالله، والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 127].

- أن يكون لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأغراض.

- أن يكون الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية سائر بسيرها مقيماً بإقامتها، أي يجعل نفسه وفقاً على أوامره ومحابه[2].

4 - الكرم:

فمن الأمثلة على ذلك، الكرم الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لضيوفه من الملائكة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: 24 - 26].

وفي قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ

(1) مدارج السالكين (2/ 169).

(2) المصدر نفسه (2/ 157).

إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: 26 - 27]، متضمن وجودها من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف:

- منها قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبادر على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه فلفظة «راع» تنفي هذين الأمرين.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله، إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

- وقوله: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدهما: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

- وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمن المدح وآداباً أخر، فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وهذه صيغة عرضه مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا[1].

- وهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يقول الله ﷻ على لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59].

أي: خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم[2].

* - وأمّا إذا جئنا إلى كرم الرسول ﷺ وجوده فهو الكرم الذي لا يضاهى والجود الذي لا يبارى ويكفينا في ذلك قول الأعرابي الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فوجد عنده من الكرم والسخاء ما يبهر العقول حتى قال مقولته المشهورة لما رجع إلى قومه وقد أعطاه الرسول ﷺ غنماً بين جبلين فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة[3].

5 - الوفاء:

أمّا صفة الوفاء فهي بارزة في حياة الأنبياء عليهم السلام الذين بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وجاهدوا في الله حق جهاده، فمنهم إبراهيم عليه السلام الذي قال عنه ربه تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: 37] أي بلغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس «وَفَّى» ما أمر

(1) بدائع التفسير (4/ 243) وقفات تربوية (3/ 119).
(2) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2312.
(3) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2312.

به، وقال قتادة «وَفَّى» طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه، وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذي قبله[1].

ومدح الله سبحانه نبيه إسماعيل عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54].

قال ابن كثير: «وقال بعضهم: وإنما قيل له ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فصدق في ذلك[2].

وقد وَفى موسى عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوة الله عز وجل وصبره على أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم وقد كان له موقف وفاء قبل بعثته، ألا وهو موقفه عليه الصلاة والسلام مع شيخ مدين حينما آجر نفسه عشر سنين وهي أتم الأجلين عند الشيخ والد البنتين حتى يتزوج إحداهما، وكان قد خيره بين الثمان والعشر، فاختار أكمل الأجلين.

عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذ قال فعل[3].

---

(1) تفسير ابن كثير عند الآية (37) من سورة النجم.

(2) تفسير ابن كثير عند الآية (54) من سورة مريم.

(3) البخاري في الشهادات، رقم 2684.

إن العقل والقلم يعجزان عن الإحاطة بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله ﷻ، سواء من جهة الكم أو الكيف ولكننا استعرضنا بعض هذه الأخلاق الكريمة لترشدنا إلى غيرها.

ثالثاً: التعرض للأذى والصد عن سبيل الله ﷻ من قبل أعداء الدعوة وأنصار الباطل:

من سنن الله في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرضهم للأذى ووقوف المفسدين في طريق دعوتهم يصدونهم ويشوهونهم ويؤذونهم بصنوف الأذى والابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

ولما جاء الرسول ﷺ إلى ورقة بن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها وأخبره بما رأى في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى: يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أومخرجي هم**»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يذكرني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1].

ومن صور الأذى والصد عن سبيل الله ﷻ والتي تعرض لها أنبياء الله ورسوله عليهم الصلاة والسلام:

---

(1) البخاري، كتاب بدء الوحي رقم 3.

1 - السخرية ورميهم تارة بالسحر وتارة بالجنون والسفاهة وتارة بالكذب والضلالة:

والشواهد من القرآن على هذا كثيرة منها:

- قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: 60].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 25].

- وقال عز وجل عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66].

- وقوله تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: 153].

- ونفس هذه المقولة قالها قوم شعيب لنبيهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: 185].

- وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 76].

- وقال تعالى عن مشركي العرب مع رسول الله ﷺ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: 5].

- وقال عز وجل مُخبراً عن هذا الموقف الموحد من المشركين

مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: 52 - 53][1].

2 - القتل والسجن والإخراج من الأرض

- قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116].

- وقال تعالى عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 68].

- إخباره تعالى عن تهديد قوم شعيب لنبيهم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: 88].

- وقول قوم لوط لنبيهم عليه الصلاة والسلام وأهله في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: 56].

- ولما قصّ الله عزوجل علينا خبر قوم نوح وهود وصالح مع رسلهم في سورة إبراهيم قال بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ [إبراهيم: 13].

- وقوله تعالى عن تهديد فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام بالقتل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ﴾ [غافر: 26].

---

(1) وقفات تربوية (3/ 163).

- وما تعرض له الرسول ﷺ من التهديد بالسجن أو الإخراج أو القتل والذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

- وقال نوح عليه الصلاة والسلام عندما هُدد بالرجم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 117 - 118].

- وقال شعيب عليه الصلاة والسلام عندما هدد بالإخراج من بلده: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89].

- وقال لوط عليه الصلاة والسلام بعدما هدد بالإخراج: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء: 168 - 169][1].

وقد يلجأ المبطل إلى القوة المادية فيقتل بعض أنبياء الله ويعذب بعضاً آخر، بعد أن تعوزه الحجة، وينقصه البرهان والدليل، فيكون التجاؤه إلى التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه وعلامة على نصر أعدائه، ورب معذب أو قتيل كتب الله له النصر ولدعوته الظفر والتأييد، ورب جبار أو عنيد كتب الله عليه الذل وسجل عليه الخذلان فكان الأول حياً في موته منتصراً في قبره، وكان الثاني ميتاً في حياته، مكبوتاً في جبروته وكبريائه، فهو نصر معنوي، يظفر فيه

(1) وقفات تربوية (3/ 177 - 178).

الحق بالباطل، وتظهر فيه الحجّة على التقليد، والبرهان على الشبهة، وقوة الروح على قوة المادة، وقد يكون مع النصر المعنوي نصر مادي كإنجاء الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا، وصنعوا له ما صنعوا وإنجاء نبينا محمد ﷺ من تدبير قريش قتله، كل ذلك نصر مادّي معه نصر معنوي[1].

3 - التصنيف في الرزق وانتهاج سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتضح هذا مِمّا قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول ﷺ، ومن آمن معه مقاطعة اقتصادية في البيع والشراء وغير ذلك ومحاربتهم في شعب أبي طالب حتى مسهم الضر وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً، وكذلك ما نادى به المنافقون في المدينة من محاولة لتضييق سبل الرزق لمن حول رسول الله ﷺ حتى يتفرقوا عنه وينشغلوا في طلب المعاش، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 17].

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع ولؤم النحيزة[2]، ذلك أنه لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنون.... وهي خطة غيرهم ممن

---

(1) دعوة الرسل، محمد العدوي، ص: 241.

(2) النحيزة: نحيزة الرجل: طبيعته.

يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7][1].

4 - إثارة الفرقة بين أبناء الأمة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

وهذا واضح من قوله تعالى عن فرعون مصر: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

وكذلك ما حاوله اليهود زمن الرسول ﷺ من إثارة النعرات بين الأوس والخزرج بعد إسلامهم ولكنهم باءوا بالفشل وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول ﷺ[2].

5 - اتهامهم بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتضح هذا جلياً من قوله تعالى عن المقولة الجائرة لفرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: 26].

وقال تعالى عن الملأ من قوم فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ...﴾ [الأعراف: 127][3].

---

(1) ظلال القرآن (6/ 3579).

(2) وقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 171).

(3) وقفات تربوية في ضوء القرآن (3/ 167).

6 - اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأنهم طلاب ملك ودنيا وليسوا مخلصين فيما ينادون به:

- قال تعالى عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام أنهم قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24].

- وقوله تعالى عن فرعون وقومه مع موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78].

- وقوله تعالى: أيضاً في مقولة فرعون لموسى عندما رأى معجزة العصا: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 57].

- وفي قوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [يونس: 78]: هذه الكلمة من ملأ فرعون هي إذكاء لشعور الرفعة وأبهة السلطان، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسى وصاحبه، لأنه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه ويقضي على نفوذه وعظمته، وهي دسيسة خبيثة دنيئة ألفناها من بطانات الرؤساء وتعوّدناها من حواشي السوء إذا كرهوا رجلاً دسوا عليه تلك الدّسيسة، واتهموه بتلك التهمة، لأنهم يعلمون أن الرؤساء لا تتأثر بشيء تأثرها بما يمس سلطانها ويتعلق بسلطانها، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنهم لا يناقشون فيها، ولا يطلبون عليها دليلاً ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الدسّاس، وهي طبيعة من طبائع التسلط وخُلق من أخلاقه لا تخص رجلاً دون آخر ولا تتعلق بجيل دون جيل.

وقد يعلم ملأ فرعون أن موسى عليه الصلاة والسلام وأخاه

هارون لا يريدان ملكاً وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه، ولكن بطانات السوء تأبى إلا أن تظهر المصلح بتلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لب فرعون ومن على شاكلته من الظلمة المستبدين لذلك لجأوا إلى تلك الدسيسة: دسيسة أنهما يريدان ملكاً ولا يريدان رسالة[1].

وهذه الصور من الأذى والصد عن سبيل الله تعالى تبين لنا سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل وسنته سبحانه وتعالى في الابتلاء والتمحيص.

رابعاً: التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد:

أوّل ما أوحي إلى رسول الله ﷺ من ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: 1 - 2] فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: 1] وأرسله بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتر له ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح، وهدنة،

(1) دعوة الرسل، محمد العدوي، ص: 221 بتصرف.

وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوصي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت «سورة براءة» نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً ظهر لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: 2]، وهي الحرم المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5].

فالحرم هاهنا: أشهر التسيير، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك وآخرُها العاشر من ربيع الآخرة وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: 36]، فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يمكن

لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم فقتل الناقض لعهده، وأجَّل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتم للموفي بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية، فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن بربه، ومسالم له آمن، وخائف محارب. وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين[1].

هذا هو خط سير دعوته ﷺ وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلى أن مكن له في الأرض ونصره.

وفترة النبي ﷺ قبل الهجرة والإذن بالقتال محل اتفاق بين الأنبياء جميعاً، حيث أن هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكف اليد، أما بعد الهجرة، فكان الجهاد الذي نصر الله به نبيه ﷺ، وبما أيده به من المعجزات، أما الأنبياء الذين

(1) زاد المعاد (3/ 159 - 161).

لم يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء، فكان نصر الله ﷻ ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح، وذلك النصر يجيء بمعجزة منه سبحانه وآية من آياته، فينصر الله سبحانه به أنبياءه ويهلك به أعداءه، كما نصر نوح بالطوفان، وهود بالريح، وصالح بالصاعقة وشعيب بعذاب يوم الظلة[1].

ومن أهم ملامح الدعوة في فترات الاستضعاف والذي يتضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة، الصفح والصبر على الأذى وكف اليد والاستعانة بالله على كل وسائل الأذى والصد والاستفزاز الذي يقوم به أهل الباطل وأعداء الدعوة. إن القول بالصفح والصبر في الدعوة وكف اليد لا يعني أبداً ترك الجهر بالدعوة إلى التوحيد وتبصير الناس بدينهم وتصحيح مفاهيمهم، وتوعيتهم بكيد أعدائهم، كما أنه لا يعني بحال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للناس بتحذيرهم من الفساد وعواقبه وتعرية الباطل، وإنما المقصود تجنب أي شكل من أشكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأسباب المذكورة سابقاً، وما سوى ذلك يجب أن يبقى على أشده في الدعوة والبلاغ والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية وحسب الاستطاعة وقدر ما يملك من فعل الأسباب وأن توطىء النفوس على تحمل الأذى والابتلاءات التي تترتب على دعوة الناس وتبليغهم دينهم حتى إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصاره فإذا العزائم قوية تتحمل الأذى وتثبت ولا تضعف وتتضعضع أمام

(1) وقفات تربوية (3/ 185).

تهويش الباطل وتخويفه أو أمام ترغيبه ومساوماته[1].

خامساً: مراعاة السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

- قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 43].

- وقال عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

والتاريخ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة يساعد على كشف هذه السنن التي هي غاية في الدقة والعدل والثبات. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها والنجاة منها، حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث، فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق[2].

ومن السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنها ما يلي:

1 - سنة سوء عاقبة المكذبين:

إن الذين يكذبون بآيات الله ورسله ويظلمون الناس بغير حق، ويسعون في الأرض فساداً، وعدهم الله بسوء العاقبة، قال تعالى:

---

(1) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم (3/ 196).

(2) منهج كتابة التاريخ السلمي، ص: 60.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: 37 - 39].

2 - العاقبة للمتقين:

- قال تعالى عقب قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

فمِن سنن الله تعالى أن العاقبة للمتقين والهلاك للمكذبين المعاندين.

- قال تعالى عن هود عليه الصلاة والسلام مع قومه: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 72].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

وما جرى من تحقق هذه السنة في الماضي سيجري مثله إن شاء الله تعالى في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين يستحقون نصر الله ﷻ [1].

(1) وقفات تربوية (3/ 207).

3 - الابتلاء سنة جارية للمؤمنين:

وهذه السنة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعليق، حيث تواردت بها الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك، ويكفي قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله: أيُ الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»[1].

وحكمة هذا الابتلاء عظيمة وفوائده في التربية والتمحيص وتمييز الصفوف معروفة وعلى هذا ينبغي أن توطن النفوس على هذه السنة مع سؤل الله عز وجل العافية والثبات[2].

---

(1) سنن الترمذي رقم 2400، صححه الألباني رقم 1003.

(2) وقفات تربوية (3/ 210).

4 - سنة إناطة التغيير بالبشر:

وتعتبر هذه من سنن الله - سبحانه - الخالدة التي أناط بالبشرية مسؤولية رقيهم وانحطاطهم، واتباعهم للخير أو الشر، حيث إنهم منحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى ﷻ الرسل التي جاءتهم بالهداية الربانية التي فيها خيرَي الدنيا والآخرة لمن اتبع المرسلين، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123].

فإذا وجدت أسباب الهداية فإن النتائج تتبعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

لذلك فإن التغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشر إلى الخير أو العكس والبشر في كلتا الحالتين هم المسؤولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ولقد تعامل رسول الله ﷺ مع هذه السنة في تغيير النفوس والمجتمع، ومن تأمل هذه الآية الكريمة التي قررت حدوث التغيير من الله ـ سبحانه ـ مترتباً على حدوثه من النفس البشرية سواء بالسلب أو الإيجاب، وهذا الترتيب يضع البشرية أمام مفرق الطريق، ويربط في أعناقهم مسؤولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وهذه السنة لا يمكن إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني الذي يربط بين السنن والأحداث التاريخية، ويحدد العلاقة السليمة بينهما، حيث إن اتباع المنهج الرباني يغطّي خير السنن ويصرف الصوارف، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38][1].

5 - سنة زوال الأمم بالعلو والطغيان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: 6 - 14].

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرر سنة من سنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه، إنها سنة زوال الأمم بالترف والفساد، وزوال الأمم بالتجبر والطغيان، وزوال الأمم بالبطر والكبرياء، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

أي: أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، فعصوا ففسقوا وحققوا أسباب الزوال والانهيار فحقت عليهم سنة الأخذ والزوال، والتدمير والتنكيل، جزاء فسقهم

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، د. محمد صامل السلمي، ص: 64.

وعصيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

6 - سنة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: 11].

فإذا ما فشى الظلم وعدم إقامة العدل في أمة من الأمم فقد تحققت فيهم أسباب الهلاك، وحقت عليهم سنة الله بالهلاك ووقعت عليهم القاصمة، لأن الله ﷻ قد حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظُلم على نفسي وجَعَلتُهُ بينكم مُحرَّماً فلا تَظَالموا**»[2].

فإذا اختلت الموازين وانعدمت القيم، وتحكم الأقوياء في رقاب الضعفاء وقسم المجتمع إلى طبقات سادة وعبيد، وتلاعب السادة بحدود الله وأوامره فقد حقت عليه سنة الله التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[3].

7 - سنة لكل أمة أجل:

قد يرى الناس موجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من

---

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، د. محمد صامل السلمي، ص: 65.

(2) مسلم (4/ 1996) رقم 2577.

(3) البخاري رقم 3475، مسلم رقم 1688.

الأمم ثم لا يرون زوالها بأنفسهم، لأن عمر الأمم أطول من عمر الأفراد ولا تقع إلا بأجل محدود لا بد من استيفائه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: 4 - 5].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 59].

8 - سنة الأيام سجال بين الناس:

فمن رحمة الله ـ سبحانه ـ أن جعل مداولة الأيام سجال بين الناس من شدة ورخاء وقوة وضعف، وعز وذل، وصحة وسقم، وغنى وفقر، امتحاناً لهم حتى يعلم منهم ـ وهو أعلم بما يفعلون ـ الشاكرين من الجاحدين، والصابرين من الجازعين والمجاهدين من القاعدين والمنفقين من الممسكين، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 14][1].

9 - سُنة نَصرُ اللّهِ للمؤمنين:

لقد قضت حكمة الله ـ سبحانه ـ وسنته الجارية على استحقاق

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 65.

المؤمنين لنصره إذا أتوا بشروط هذه السنة، ومن هذه الشروط:

أ - الاستقامة على منهج الله: قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16].

ب - عدم الإشراك به - سبحانه - وتحقيق الإيمان، والعبودية الشاملة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: 55].

ج - ذكر الله كثيراً، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

فإذا ما حقق المؤمنون شروط هذه السنة، كما كان في عهد داود، وسليمان ومحمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم فإن نصر الله لهم قريب، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: 51].

- وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

- وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47][1].

10 - سنة التدافع بين الحق والباطل:

وهذه السنة من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوف عندها وعدم نسيانها أو الغفلة عنها، والمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 69.

الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمس هذه السنة بوضوح وجلاء، فالنبي ﷺ تعامل مع هذه السنة وظهرت جلياً في الفترة المدنية مع حركة السَّرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي ﷺ ضد المشركين، وهذه السنة متعلقة تعلقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

ونلاحظ في آية البقرة: أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل، المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيِّل الله تعالى الآية بقولك: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251] مما يفيد أنَّ دفع الفساد بهذا الطريق، إنعام يعمُّ الناس كلَّهم(1).

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى: أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوِّهم، ويختتم الآية بتقرير لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

(1) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي (3/ 514).

لقد أدرك الصحابة هذه السنة، وعلموا أن القضاء على الباطل وتدميره، لا بدَّ له من أمة لها قيادة ومنهج، وقوة تدمغ الباطل وتزهقه، وأيقنوا أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به، لقد علمهم النبي ﷺ كيف يتعاملون مع هذه السنة، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فقد شرع الله ﷻ الجهاد لهذه الأمة، وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، وما تركه قوم إلا أذلهم الله، وسلط عليهم عدوهم، وقد شرع الله ﷻ الجهاد على مراحل، ليكون أروض للنفس، وأكثر ملاءمة للطبع البشري وأحسن موافقة لسير الدعوة وطريقة تخطيطها[1].

هذه بعض السنن التي نلاحظها في دراسة دعوة الأنبياء والرسل.

وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها والنجاة منها، حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق.

والسنن الربانية نوعان: سنن خارقة وسنن جارية:

(1) السيرة النبوية للصَّلّابي (1/ 611 - 612).

فالسنن الخارقة: هي التي يجريها الله على خلاف مألوف الناس على يد رسول من رسله تأييداً من الله له بتلك المعجزة، كما حوَّل العصا حية في يد موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه: 19 - 20].

وكما أنبع الماء من الصخرة عندما ضربها موسى بعصاه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ . . .﴾ [البقرة: 60].

والسنة الجارية نوعان: سنة متعلقة بالأمور الطبيعية كسنة الله في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر فهي تجري وفق ناموس محدد قدَّره الله لها، وسنة متعلقة بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده، فهي ثابتة لا تتبدل مثل نصره لأوليائه وإهانته لأعدائه، كما أنه ﷻ إذا حكم في الأمور المتمثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول، فهو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل، كما أن من سنته التفريق بين المختلفين، كما دل على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35][1].

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، لأن الاعتبار إنما

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص: 60.

يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن[1].

فهذه السُنن الشرعية إنما تدرك من خلال النظر في التاريخ وملاحظة مصائر الأمم وقيام الحضارات وسقوطها، وأسباب ذلك[2].

والسُنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل، والجزئيات[3].

كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله.

سادساً: أصناف المدعوين في دعوة الأنبياء:

فصل القرآن الكريم أصناف المدعوين الذين اتصل بهم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فلا تكاد تجد طبقة من الناس إلا والقرآن يقدم لك نموذجاً في اتصال الأنبياء بهم ومن هذه النماذج:

1 - الملوك:

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ

(1) جامع الرسائل لابن تيمية، ص: 55.
(2) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 60.
(3) تفسير التاريخ، عماد الدين خليل، ص: 109.

وَأُمِيتَ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [يونس: 75].

- وقال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: 20-31].

2 - الأغنياء المترفون:

قال هود عليه الصلاة والسلام لقومه في القرآن الكريم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا

تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: 128 - 134].

وقال صالح لقومه في القرآن الكريم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74].

3 - الفقراء والمستضعفون:

- هذا كلام قوم نوح لنوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: 27].

- وقال تعالى عن قوم موسى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 4 - 6].

4 - المطففون:

- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: 84 - 85].

5 - الشاذّون:

- قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: 80 - 82].

6 - المسجونون:

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: 39-40].

7 - الأقربون:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: 42].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 41 - 45][1].

---

(1) المحكم في العقيدة، ص: 159 - 162.

سابعاً: تفاضل الأنبياء:

التفاضل بين الأنبياء ثابت بأدلة الشرع فمن الكتاب قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: 253].

- وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55].

ومن السنة:

ما رواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون**»[1]، فقوله ﷺ: «**فُضّلت على الأنبياء**» دليل وقوع التفاضل بينهم.

والأمة مُجْمِعة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض[2].

وبعد أن ذكر سبحانه تفاضلهم على وجه الإجمال في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55].

---

(1) صحيح مسلم (1/ 271).

(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، محمد الشظيفي، ص: 117 - 118.

أما قوله: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فالمراد به موسى عليه الصلاة والسلام، إذ هو المشتهر بين الأنبياء بالتكليم، وقد قال له سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144].

وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

- فالتفضيل بالتخصيص بمنقبة، كتكليم موسى، فمن خص بمنقبة عظيمة أفضل ممن لم يخص.

- والتفضيل بالبينات والآيات كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [ص: 87]، وقال ﷺ: «**أُعطيتُ جوامع الكَلم ونُصرتُ بالرعب**»[1].

- والتفضيل بالتأييد بالملائكة، كما قال سبحانه في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253]، وروح القدس هو جبريل عليه السلام في أظهر الأقوال[2]، فمن كان تأييد الله له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر كان أفضل، وقال ابن سعدي في الآية: وأيده بروح القدس أي: بروح الإيمان فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن بحسب إيمانه كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: 22] ولكن ما لعيسى أعظم مما لغيره لهذه خصه بالذكر، وعليه فكل من كان من تأييد الله له من الأنبياء بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل.

- والتفضيل بالشرائع كما قال ﷺ: «**وأُحِلَّت لي الغنائم**

(1) صحيح مسلم (1/ 271).

(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، محمد الشظيفي، ص: 121.

وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[1]، وكما قال سبحانه عن محمد ﷺ في شأن اليهود: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157].

وكما حكى الله قول عيسى لليهود: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50].

وكل ما كانت شريعة أتم وأيسر فهو أفضل.

- والتفضيل بإنزال الكتب، كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163]، فمن أنزل عليه الكتاب أفضل ممن لم ينزل عليه كتاب، ثم التفضيل بما في الكتاب من الشرائع ونحوها بين من أنزل إليهم كتاب.

- التفضيل بالدرجات، كما قال سبحانه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: 252] يعني مراتب متباعدة ووجوه متعددة[2].

- والتفضيل بالمراتب في السماء كما في حديث المعراج[3].

- التفضيل بكثرة الاتباع كما في حديث الصحيحين أن النبي ﷺ عرضت عليه الأمم فرأى النبي وليس معه أحد والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ومعه العشرة والنبي ومعه السواد الأعظم[4].

قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا

(1) صحيح مسلم (1/ 271).
(2) روح المعاني، للألوسي، (3/ 2).
(3) صحيح مسلم (1/ 145)، فتح الباري (13/ 478).
(4) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 122.

وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أبهر وأشهر، وأن تكون أمته أزكى وأكثر أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتخص ولايته واختصاصه[1].

والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر، كما كان نوح وإبراهيم[2].

فهذه جملة من وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم[3].

1 - أولو العزم من الرسل:

أفضل الرسل أولو العزم منهم، قال ﷻ آمراً نبيه محمد ﷺ وهو أفضل الخلق: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].

فامتدحهم الله ﷻ بالعزم وخصهم بالذكر من بين رسله، وأمر نبيه محمداً ﷺ وقد فضله على جميع خلقه أن يقتدي بهم[4]، فأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبياؤه هم المرسلون منهم وأفضل المرسلين أولو العزم[5].

---

(1) الشفاء، للقاضي عياض (1/ 227، 228).

(2) الفتاوى لابن تيمية (15/ 131).

(3) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 123.

(4) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 130.

(5) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، ص: 7.

قال ابن كثير: لا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء وأن أولي العزم منهم أفضلهم[1].

وواضح من الآية السابقة أن الصفة البارزة في أولئك الرسل أولي العزم هي الصبر، ذلك أنها هي الصفة التي يطلب الله ﷻ من رسوله الكريم ﷺ أن يتأسى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة، وكل الرسل ذوو صبر وثبات وتحمل، فلا بد أن يكون اختصاص «أولي العزم» بهذا الوصف الذي وصفهم به الله في كتابه الكريم ناشئاً في زيادة صفة الصبر عن الرسل العاديين، وقدرة فائقة على تحمل الشدائد، وثبات في مواجهة المواقف الصعبة التي مرت بهم في أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد، وإذا كان الرسل جميعاً هم هداة البشرية وقادتها، وهم موضع القدوة والأسوة فإن في حياة أولي العزم من الرسل عبراً خاصة، لطول جهادهم وكثرة المواقف الصعبة التي تعرضوا لها، وثباتهم في وجه العواصف المزلزلة التي تنخلع لها القلوب، واطمئنانهم إلى قدر الله ووعده بالنجاة والنصر... ثم فيما حل بالمكذبين من أقوامهم من هلاك وتدمير إن الدعاة بصفة خاصة هم أولى الناس بأخذ العبرة، من سير الرسل جميعاً، ولكنهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سير أولي العزم من الرسل، وعلى رأسهم محمد ﷺ، لأنه ما من موقف يتعرضون له في دعوتهم إلا له مثيل أو شبيه في سيرهم.. ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل، والجهد الشاق، وتذهب قوى الباطل بدداً ويبقى الحق راسخاً في الأرض يظلل الناس بظلاله الوارفة، وينعم الناس

(1) تفسير ابن كثير (3/ 47)

في ربوعه بالأمن، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحوا في سبيله بأمنهم وراحتهم، وأموالهم وأنفسهم، يذهب منهم من ذهب شهيداً في سبيل الله ويبقى منهم من يبقى شهيداً للحق بصبره وثباته وتجرده لله، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23][1].

2 - تعيين أولي العزم:

أولو العزم خمسة وهم: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام وهم الخمسة المذكورون نصاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

وفي قوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: 13].

فقد خصّهم الله عزوجل بالذكر في هاتين الآيتين من بين الأنبياء وهو تنبيه إلى فضلهم بين سائر الأنبياء، وقد خصهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظم الأمور وأفضلها وأغلظها، وهو الميثاق الذي قال فيه: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 154]، والوصايا التي شرعها لخلقه، وذلك ما أخذ على جميع النبيين وبُعث به جميع النبيين وهو العهد الذي بين الله وخلقه، وهو إقامة الدين وعدم التفرق فيه وإسلام الوجه له سبحانه والدعوة إلى ذلك والمجاهدة فيه والموالاة

(1) ركائز الإيمان، ص: 284 - 285.

فيه والبراءة فيه، وهؤلاء الخمسة صلوات الله وسلامه عليهم أكمل وأعظم من قام بهذا الميثاق، ولذا خُصوا بالذكر، وهم الذين تفزع الأمم إليهم في الموقف يوم القيامة بعد أبيهم آدم فيتراجعونها حتى تنتهي إلى محمد ﷺ كما في حديث الشفاعة[1].

يقول ابن القيم في بيان طبقات المكلفين: الطبقة الأولى وهي العليا على الإطلاق مرتبة الرسالة فأكرم الخلق وأخصهم بالزلفى لديه رسله قال: وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: 13] وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ.

قال: الطبقة الثانية: من عدَّاهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم على بعض[2].

3 - في تفاضل أولي العزم:

ذكر الله ﷻ أولي العزم في آيتي الأحزاب والشورى المذكورتين، ، وقد بدأ سبحانه في الآيتين بذكر الطرفين أول الرسل وخاتمهم، وذكر بعدهما الثلاثة مبتدأ بإبراهيم ثم موسى ثم عيسى بحسب ترتيب وجودهم عليهم الصلاة والسلام، وقد بدأ سبحانه في آية الأحزاب بذكر محمد ﷺ لشرفه وفضله عليهم وذلك لأن في الآية

(1) فتح الباري (8/ 395)، صحيح مسلم (1/ 63).

(2) طريق الهجرتين، ص: 249، مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 135.

ذكر للنبيين في الجملة تعميماً ثم خص سبحانه أفضلهم بالذكر بعد دخولهم في العموم، فناسب لذلك الابتداء بذكر محمد ﷺ لكونه أفضل هؤلاء المفضلين، وفي الآية ذكر للميثاق المأخوذ على النبيين فهي متعلقة بالأنبياء خاصة ولذلك قدم محمد ﷺ في الذكر للوجه المذكور قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

أما آية الشورى فمتعلقة بالشريعة التي بعثوا بها، ولذلك بدأ سبحانه بنوح قبل محمد عليهما الصلاة والسلام لأن الآية في ذكر دين الإسلام وما وصى الله به الرسل فناسب ذلك أن يبدأ بنوح، لأن رسالته أول الرسالات ففيه بيان جلي أن أول رسالات الرسل أوصت بما شرع لأمة محمد ﷺ من الدين فهو دين أصيل مستقيم لا عوج فيه ولا اضطراب، ثم ذكر سبحانه من بين من توسطوا بين محمد ونوح أشهر أصحاب الشرائع وأفضلهم[1].

فمحمد ﷺ هو أفضل أولي العزم بلا خلاف يقول ابن كثير: «ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام على المشهور[2]، يرى ابن كثير أن نوحاً آخرهم في ترتيبهم في الفضل، وقوله: «على المشهور» كأنه إشارة إلى وجود خلاف في ترتيبهم في الفضل بعد محمد ﷺ، وقد قطع بأن إبراهيم بعده في الفضل في موضع آخر فقال في إبراهيم: هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ[3].

(1) تفسير ابن كثير (3/ 470)، روح المعاني (21/ 154).

(2) تفسير ابن كثير (3/ 47)، مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 137.

(3) البداية والنهاية (1/ 170).

4 - بعض خصائص أولي العزم:

أ - إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فمن فضائله وخصائصه عليه الصلاة والسلام أنه خليل الرحمٰن لم يشاركه في الخلة إلا محمد صلى الله عليهما وسلم، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125].

- وقد جعله الله إماماً للناس يقتدون به ويهتدون بهديه، قال سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130].

- وقد أجرى الله على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً للناس ومثابة وأمناً وعهد الله إليه ولابنه تبعاً تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود وأمر سبحانه المؤمنين باتخاذ مقامه مصلى، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

- وقد حصر الله النبوة والكتاب من بعده في ذريته عليه الصلاة والسلام قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27]. فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته، وهو عليه السلام أول من يكسى يوم القيامة كما في المتفق عليه من حديث ابن عباس قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: «**إنكم محشرون حفاة عراة غرلاً - ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الآية - وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم**»[1].

- وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين، قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41].

فجمع له بين الصديقية والنبوة، وفضائله أكثر من أن تحصر عليه السلام وما عَلِمناه غيض من فيض مما جهلناه في إبراهيم عليه السلام[2].

ب - **نوح عليه السلام**: فقد جاهد في الله حق جهاده وهو أول رسول بعث في الناس بعد اختلافهم على دينهم واجتيال الشيطان لهم، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهراً، صابراً على أذى قومه، لا تثنية عن الدعوة إلى ربه سفاهاتهم وتعدياتهم، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً

(1) مسلم (4/ 2194) فتح الباري (11/ 377).

(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 143.

لِلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: 14 - 15].

وقال سبحانه في نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: 5 - 10].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [هود: 32 - 33].

ج - موسى عليه السلام:

وأمّا موسى عليه السلام فهو كليم الله اشتهر من بين الأنبياء بهذه الحلية، قال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: 143 - 144].

وقد ورد ذكر تكليم الله موسى في مواضع من كتاب الله وهو عليه السلام المعنى في قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 253].

وقد آتاه الله عز وجل تسع آيات بينات[1]، إلى فرعون وقومه ظهرت بهن حجته وقامت بينته أيده الله بهن، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: 101].

- وقال عز وجل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: 12].

د - **عيسى** عليه السلام: فاختص من بين سائر الخلق بأنه ولد لأم من غير أب، وإنما نفخ جبريل في درع جيب مريم فحملت بعيسى عليه السلام وتكلم في المهد وآتاه الله من البينات ما فضله به في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: 253].

- وحكى الله كلام عيسى في المهد فكان مما قاله وتظهر فيه من فضائله عليه السلام غرر: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: 30 - 33].

- وقد قال سبحانه في ذكر ولادة عيسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ

(1) التسع هي: العصا واليد والسنين وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: 16 - 22].

وكان من الآيات التي آتاها الله عيسى عليه السلام ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 110].

وقد رفعه الله عز وجل إليه، فهو حي في السماء وهو في الثانية كما أحاديث الإسراء، قال سبحانه في تكذيب اليهود في دعواهم قتله عليه السلام: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 157-158].

وهذا من خصائصه عليه السلام إذ ليس في الأنبياء حي إلا هو[1].

وسينزل عليه السلام في آخر الزمان كما دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع وهذا من خصائصه عليه السلام، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ

(1) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 146، 147.

﴿ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159].

وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ بنزول عيسى عليه السلام [1].

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً مقسطاً**»[2]، وقال ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**»[3].

5 - تفضيل نبينا محمد على جميع الخلائق:

محمد ﷺ هو أفضل الأنبياء على الإطلاق بل هو خير الخلائق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه، وقد جاءت في ذلك نصوص لا تحصى كثرة فيما أوحاه الله عز وجل في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وفيما كتب وروي من أقوال الأئمة المهديين من السلف الصالح رضوان الله عليهم.

- قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: 253] والمعنى بقوله: ورفع بعضهم درجات: محمد ﷺ، قاله ابن عباس والشعبي ومجاهد وغيرهم[4].

- وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55]، ذكر المفسرون أن الآية في محاجة اليهود وأن

(1) تفسير ابن كثير (1/ 578).
(2) البخاري مع الفتح (4/ 414) مسلم (1/ 135).
(3) البخاري في صحيحه مع فتح الباري (4/ 414) مسلم (1/ 135).
(4) تفسير الطبري (3/ 2)، تفسير القرطبي (3/ 264).

المعنى: وإنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبي ﷺ[1].

- وقد احتج العلماء بقوله تعالى في الأنعام ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأية: 90] لكون النبي ﷺ أفضل الأنبياء لأن ما تفرق في الأنبياء من خصال الفضل اجتمعت فيه ﷺ[2].

- وقال ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليُصَل، وأُحِلَّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعِثتُ إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة**»[3].

- وفي أحاديث الشفاعة في بيان فضله ﷺ على الأنبياء ما هو ظاهر، وقد وصف النبي ﷺ ذلك اليوم بأنه يوم يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام[4].

- وقال ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت لا أفتح لأحد قبلك**»[5].

---

(1) تفسير البغوي (3/ 120)، تفسير السعدي (4/ 143).
(2) تفسير الخازن (2/ 157).
(3) صحيح مسلم (1/ 370)، فتح الباري (1/ 533).
(4) صحيح مسلم (1/ 562).
(5) مسلم في صحيحه (1/ 188).

- وقال ﷺ: «**أنا أكثر الأنبياء تبعاً**»[1].

- وقال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع**»[2].

- وقال ﷺ: «**أنا أكثر الأنبياء تبعاً**[3]**، وقال: لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت وإن من الأنبياء ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد**»[4].

- وقال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[5].

وفي معنى: ولا فخر: أي: لا أتبجح بهذه الأوصاف وإنما أقولها شكراً لربي ومنبهاً أمتي على أنعامه عليَّ، وإنما نفي الفخر الذي هو الكبر الواقع في النفس المنهي عنه الذي قيل فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان: 8]. ولم ينف فخر التجمل بما ذكره من النعم التي بمثلها يفتخر ومثله قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]. يعني الأشرين، ولم يُرد الفرح بنعمة الله تعالى[6].

وقد قال سبحانه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: 58] فأمر سبحانه بالفرح بفضله[7].

---

(1) مسلم في صحيحه (1/ 188).
(2) مسلم في صحيحه (4/ 1782).
(3) مسلم في صحيحه (1/ 188).
(4) المصدر نفسه (1/ 188).
(5) صححه الألباني في صحيح الجامع (2/ 21).
(6) صفة الصفوة (1/ 183) لابن الجوزي.
(7) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 153.

ولقد أجمعت الأمة على أنه أفضل الخلق[1].

6 - توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء:

لا بد من اعتقاد التفاضل بين الأنبياء واعتقاد فضل الرسل على الأنبياء وفضل أولي العزم على بقية الرسل وفضل محمد ﷺ على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك، وقد ثبت عن النبي ﷺ نهيه عن التفضيل بين الأنبياء، ونهيه عن تفضيله خاصة على بعض الأنبياء[2]، فقد قال ﷺ: «**لا تُفَضلوا بين الأنبياء**»[3]، وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم، ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: «**أضربته؟**» قال: سمعته بالسوق يحلف، والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد ﷺ، فأخذتني غضبة، ضربت وجهه، فقال النبي ﷺ: «**لا تخيروا بين الأنبياء**»[4]. وفي رواية: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله**»[5]. وروى القصة أبو هريرة بنحوه إلا أنه قال: «**لا تخيروني على موسى**»[6]. وفي حديث ثانٍ قال ﷺ: «**لا ينبغي أن يقول أنا خير من يونس بن متى**»[7].

---

(1) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 153.
(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 158.
(3) البخاري مع الفتح (6/ 450) مسلم (4/ 1844).
(4) البخاري مع الفتح (5/ 70)، مسلم (4/ 1844).
(5) البخاري مع الفتح (6/ 450)، مسلم (4/ 1844).
(6) مسلم (4/ 1844).
(7) مسلم (4/ 1846).

والحاصل أن في الحديثين ينهى رسول الله ﷺ عن التفضل بين الأنبياء، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصة.

- على حمل الحديث في يونس على أن النبي ﷺ هو المراد وهو أفضل منهما ومن سائر الأنبياء وجميع الخلق قطعاً كما تقدمت الدلائل عليه من الكتاب والسنة والإجماع، وقد وجه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشكال في أقوال متعددة منها:

- أن النهي ورد قبل أن يعلم النبي ﷺ أنه سيد ولد آدم وأفضل الأنبياء فلما علم أخبر به، وأن النهي عن التفضيل منسوخ بالقرآن[1].

- أن النهي من باب التواضع وهضم النفس ونفي الكبر والعجب.

- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والتشاجر وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع الأنصاري عند النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد وأبي هريرة فهذا التوجيه ملائم لسبب ورود الحديث[2].

- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى توهم النقص في المفضول أو الغض منه والازدراء به[3].

---

(1) الشفا (1/ 226)، تفسير القرطبي (3/ 262).

(2) مباحث المفاضلة في العقيدة، ص: 153.

(3) المصدر نفسه، ص: 164.